سورة لقمان

هى مكية إلا الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فمدنية ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أعنيتنا أم قومك ؟ قال : كُلًّا عنيت ، فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة ، وفيها بيان كل شىء ، فقال عليه الصلاة والسلام ذلك فى علم الله قليل ، فأنزل الله هؤلاء الآيات .

وعدة آيها أربع وثلاثون ، نزلت بعد الصافات .

وسبب نزولها أن قريشا سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه وعن برّه والديه ، فنزلت .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى قال فى السورة السالفة : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة .

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : « وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » ، وقال فى هذه : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا » .

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » ، وقال هنا : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، ففى كلتيهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال هنا : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة ، وذلك يقتضى ترك المحاربة ، وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لايخفى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) .

الإيضاح

(الٓمٓ) تقدم تفسير هذا مرارا بإسهاب .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه آيات الكتاب الحكيم بياناً وتفصيلا .

(هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) أى هذه آيات الكتاب الهادى من الزيغ ، الشافى من الضلال لمن أحسنوا العمل ، واتبعوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل ، الذى رسمه الدين فى أوقاتها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، ورغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ؛ لم يراءوا به ، ولاأرادوا به جزاء ولاشكوراً .

ولما كان المتصفون بهذه الخلال هم الغاية فى الهداية والفلاح قال :

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أى إن هؤلاء الذين ذكرت أوصافهم على نور من ربهم ، وأولئك الذين رجوا ماأملوا من ثوابه يوم القيامة ، وقد تقدم مزيد إيضاح لهذا أول سورة البقرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا

وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) .

شرح المفردات

المراد بلهو الحديث : الجوارى المغنيات، وكتب الأعاجم ، وقد اشتريت حقيقة. وقال ابن مسعود : لهو الحديث : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهاراً ، وعن ابن عمر « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى لهو الحديث: إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل » ، وسبيل الله : هو دينه ، والهزوُ : السخرية ، مهين : أى تلحقهم به الإهانة ، وقراً : أى صمما يمنعهم من السماع .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه ؛ وهم الذين قال الله فيهم : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » ـ أردف ذلك بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى النضر بن الحرث اشترى قَيْنة (مغنية) وكان لايسمع بأحد يريد الإسلام ؛ إلا انطلق به إلى قينة ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم

حديث رستم واسفِنْدِيار ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون سماع القرآن .

الإيضاح

(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) أى ومن الناس فريق يتخذ مايتلهى به عن الحديث النافع للإنسان فى دينه ، فيأتى بالخرافات والأساطير والمضاحيك ، وفضول الكلام ، كالنضر بن الحارث الذى كان يشترى الكتب ، ويحدّث بها الناس ، وربما اشترى الفتيات ، وأمرهن بمعاشرة من أسلم ليحملهم على ترك الإسلام ، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال ، والصد عن دين الله وقراءة كتابه ، وهو غير عالم بفضله ومكانته ، واتخاذ سبيل الله هزواً ولعبا .

وعن نافع قال « كنت أسير مع عبد الله بن عمر فى الطريق ، فسمع مزماراً ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه ، وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع » وعن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

والخلاصة : إن الغناء عند المشتهرين به الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على اللهو والغزل والمجون ، بشعر يشبب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمور والمحرمات ، فلا خلاف فى تحريمه ، أما ماسلم من ذلك ، فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح : كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحدْوِ أَنْجَشَةَ (عبد أسود يقود بنساء النبى صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع) فأما ما ابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام ، وأما طبل الحرب فلا حرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ، ويرهب

العدو ، فقد ضرب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهمّ أبو بكر بالزجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح » فكنّ يضربن ويقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار .

وقصارى ذلك: إن الطبل فى النكاح كالدف ، والآلات المشهّرة به يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ، مما لا رفث فيه .

وسماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرم لا يجوز .

ثم بين عاقبة أمرهم ، فقال :

(أولئك لهم عذاب مهين) أى إنه كتب لهم العذاب والخزى يوم القيامة ، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل — جوزوا بإهانتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم ويخزيهم أمام الخلائق .

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا قد استشرى فى نفسه ، فكلما ذكّرت بالخير ازدادت إباء ونفورا ، فقال :

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذى اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله — يعرض عن سماعها ويولى مستكبرا ، كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه ثقلا ، فلا يصيخ لها ، ولا يأبه لتلقفها وتأملها .

ونحو الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال :

(فبشره بعذاب أليم) أى فبشر هذا المعرض وأوعده بالعذاب الذى يؤلمه ويقض مضجعه يوم القيامة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال من أعرض عن الآيات و بيّن مآله ـ عطف على ذلك ذكر مآل مَن قَبِل تلك الآيات وأقبل على تلاوتها والانتفاع بها .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم. خالدين فيها) أى إن الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة فأتوا بما أمرهم به ربهم فى كتابه على لسان رسله ، وانتهوا عما نهاهم عنه ـ لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات والمسارّ من المآكل والمشارب ، والملابس والمراكب ، مما لم يخطر لأحدهم ببال ، وهم فيها مقيمون دائما لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

(وعد الله حقا) أى ما أخبرنا به كائن لامحالة ، لأنه وعد الله الذى لايخلف وعده ، وهو الكريم المنّان على عباده .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو الشديد فى انتقامه من أهل الشرك به ، الصادّين عن سبيله ، الحكيم فى تدبير خلقه ، فلا يفعل إلا مافيه الحكمة والمصلحة لهم .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) .

شرح المفردات

العمد : واحدها عماد ، وهو مايعمد به أى يسند به ، تقول : عمدتُ الحائط إذا دعمته ، رواسى : أى جبالا ثوابت ، تميد : أى تضطرب ، والبثّ : الإثارة والتفريق كما قال : « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » والمراد الإيجاد والإظهار ، وزوج : أى صنف ، كريم : أى شريف كثير المنفعة .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله ـ أردف ذلك بالاستشهاد بما سلف ، مع تقرير وحدانيته ، وإبطال أمر الشرك ، وتبكيت أهله .

الإيضاح

(خلق السموات بغير عمد ترونها) أى ومن الأدلة على قدرته البالغة ، وحكمته الظاهرة أن خلق السموات السبع بغير عمد تستند إليه ، بل هى قائمة بقدرة الحكيم الفعال لما يشاء ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، لئلا تضطرب بكم ، وتميد بالمياه المحيطة بها ، الغامرة لأكثرها .

(وبث فيها من كل دابة) أى وذرأ فيها من أصناف الحيوان مالا يعلم عددها ومقدار أشكالها وألوانها إلا الذى فطرها .

(وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أى وأنزلنا من السماء مطرا فكان ذلك سببا لإنبات كل صنف كريم من النبات ذى المنافع الكثيرة .

و بعد أن نبه إلى أنه الخالق نبه إلى أنه الرازق بقوله :

(هذا خلق الله) أى هذا الذى تشاهدونه من السموات والأرض ومافيهما الخلق خلق الله وحده دون أن يكون له شريك فى ذلك .

ثم أنّب المشركين ووبخهم على شركهم به ، فقال :

(فأرونى ماذا خلق الذين من دونه؟) أى فأخبرونى أيها المشركون الذين تعبدون

هذه الأصنام والأوثان : أي شيء خلق الذين من دونه مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة ، حتى استحقوا به العبودية ، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التي عددتها لكم ؟ .

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم ، المستدعي للإعراض عنهم ، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول لاستحالة أن يفهموا منه شيئا فيهتدوا إلى بطلان ما هم عليه ، فقال :

(بل الظالمون في ضلال مبين) أي بل المشركون بالله ، العابدون معه غيره ، في جهل وعمى واضح لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه ، فأنّى لهم أن يرعووا عن غيّ أو يهتدوا إلى رشد وحق ؟ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) .

شرح المفردات

لقمان كان نجاراً أسود من سودان مصر ذا مشافر آتاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة. والحكمة: العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير ، كقوله لابنه : أي بنيّ إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله ، أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : يا بُنَيَّ لا تكن حلواً فتُبتلَعَ ولا مرًّا فتُلفَظَ .

وقوله : يابنى إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فآخه ، و إلا فاحذره . والشكر : الثناء على الله تعالى ، و إصابة الحق ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له .

المعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لايخلق شيئا بمن خلق كل شىء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضالّ ـ أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة: من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها دون نبىّ يرشده ، ولارسول بعث إليه .

الإيضاح

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) أى ولقدأعطى سبحانه لقمان الحكمة ، وهى شكره وحمده على ما آتاه من فضله بالثناء عليه بما هوأهل له ، وحب الخير للناس، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له .

(ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأن الله يجزل له على شكره الثواب ، وينقذه من العذاب ، كما قال : « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » .

(ومن كفر فإن الله غنىّ حميد) أى ومن كفر نعم الله عليه ، فإلى نفسه أساء ، لأن الله معاقبه على كفرانه إياها ، والله غنى عن شكره ، لأن شكره لايزيد فى سلطانه ، وكفرانه لاينقص من ملكه ، وهو المحمود على كل حال ، كفر العبد أو شكر .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩).

شرح المفردات

العظة : تذكير بالخير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام ، جاهداك : أى حرصا على متابعتك لهما فى الكفر ، أناب : أى رجع ، المثقال : مايوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل مثل فى الصغر ، لطيف : أى يصل علمه إلى كل خفىّ ، خبير : أى عليم بكنه الأشياء وحقائقها ، من عزم الأمور : أى من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب ، تصعير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين ، قال أعرابى : وقد أقام الدهر صعرى بعد أن أقمت صعره ، وقال عمرو بن حُنَىّ التغلبى :

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما

وفى الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر » والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ، وفى الحديث : « كل صعّار ملعون » أى كل ذى أبهة وكبر هو كذلك . مرحا : أى فرحا و بطراً ، والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء وهى التبختر فى المشى كبراً ، والفخور : من الفخر وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك ، اقصد : أى توسط ،اغضض : أى انقص منه وأقصر، من قولهم: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه، وحط من درجته ، أنكر الأصوات : أى أقبحها وأصعبها على السمع من نكر (بالضم) نكارة ، أى صعب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار ـ أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها سبحانه الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم ، وردّا لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التى يتعلق بعضها بحقوق الله ، و بعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

الإيضاح

(و إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنىّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) أى واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه ، وهو أشفق الناس عليه ، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده ، ونهاه عن الشرك ، و بيّن له أنه ظلم عظيم ؛ أما كونه ظلما ، فلما فيه من وضع الشىء فى غير موضعه ، وأما أنه عظيم فلما فيه

من التسوية بين من لا نعمة إلا منه ، وهو سبحانه ، ومن لا نعمة لها ، وهى الأصنام والأوثان .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك . ألا تسمعون لقول لقمان : « يابنىّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » .

و بعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه من شكر المنعم الأول الذى لم يشركه فى إيجاده أحد ، وذكر ما فى الشرك من الشناعة أتبعه بوصيته للولد بالوالدين لكونهما السبب فى وجوده ، فقال :

(ووصينا الإنسان بوالديه) أى وأمرناه ببرهما وطاعتهما ، والقيام بحقوقهما ، وكثيرا ما يقرن القرآن بين طاعة الله و بر الوالدين كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

ثم ذكر منة الوالدة خاصة لما فيها من كبير المشقة ، فقال :

(حملته أمه وهنا على وهن) أى حملته وهى فى ضعف يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق ، ثم مدة النفاس .

ثم أردفها بذكر منة أخرى ، وهى الشفقة عليه وحسن كفالته حين لا يملك لنفسه شيئا ، فقال :

(وفصاله فى عامين) أى وفطامه من الرضاعة بعد وضعه فى عامين تقاسى فيهما الأم فى رضاعه وشئونه فى تلك الحِقْبة جمّ المصاعب والآلام التى لا يقدر قدرها إلا العليم بها ، ومن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وقد وصى بالوالدين لكنه ذكر السبب فى جانب الأم فحسب ، لأن المشقة التى تلحقها أعظم ، فقد حملته فى بطنها ثقيلا ، ثم وضعته وربته ليلا ونهارا ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن

سأله من أبرّ ؟ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : ثم أباك .

ثم فسر هذه الوصية بقوله :

(أن اشكر لى ولوالديك) أى وعهدنا إليه أن اشكر لى على نعمى عليك ، ولوالديك لأنهما كانا السبب فى وجودك ، و إحسان تربيتك ، وملاقاتهما مالاقيا من المشقة حتى استحكمت قواك .

ثم علل الأمر بالشكر له محذراً إياه بقوله :

(إلىّ المصير) أى إلىّ الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ماصدر منك مما يخالف أمرى ، وسائلك عما كان من شكرك لى على نعمى عليك ، وعلى ما كان من شكرك لوالديك و برّك بهما .

و بعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين وأكد حقهما ، ووجوب طاعتهما استثنى من ذلك حقوق الله ، فإنه لايجب طاعتهما فيما يغضبه ، فقال :

(و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أى و إن ألحف عليك والداك فى الطلب ، وشدّا النكير عليك؛ بأن تشرك بى فى عبادتك معى غيرى مما لاتعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمراك به ، و إن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به .

روى أن هذه الآية نزلت فى سعد بن وقاص قال : « لما أسلمتُ حلفت أمى لاتأكل طعاما ولاتشرب شرابا ، فناشدتها أول يوم فأبت وصبرت ، فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت ، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت ، فقلت : والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أودع دينى هذا ، فلما رأت ذلك وعرفت أنى لست فاعلا أكلت » .

(وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى وصاحبهما فى أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين و يقتضيها الكرم والمروءة ، بإطعامهما وكسوتهما ، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا، مواراتهما فى القبر إذا ماتا .

وقوله : (فى الدنيا) إشارة إلى تهوين أمر الصحبة ، لأنها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء ، فلا يصعب تحمل مشقتها ؛ ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن فى الدين ببعض محاباة فيه نفى ذلك بقوله :

(واتبع سبيل من أناب إلىّ) أى واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام ، واتبع محمداً صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة : واتبع سبيلى بالتوحيد والإخلاص والطاعة ، لا سبيلهما .

(ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم إلىّ بعد مماتكم ، فأخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشر ، ثم أجازيكم عليه ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

ثم عاد إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه بعد أن نهى فى مطلعها عن الشرك وأكده بالاعتراض الذى ذكره بقوله :

(يا بنىّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) أى يا بنى إن الفعلة من الإساءة والإحسان إن تك وزن حبة من خردل فتكن فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو فى أعلى مكان كالسموات أو فى أسفله كباطن الأرض — يحضرها الله يوم القيامة ، حين يضع الموازين القسط ، ويجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » .

(إن الله لطيف خبير) أى إن الله لطيف يصل علمه إلى كل خفى ، خبير : يعلم ظواهر الأمور وخوافيها .

(يا بنىّ أقم الصلاة) أى أدها كاملة على النحو المرضى ، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات إليه ، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها فى السراء والضراء كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفية لحق الله عليه عطف على ذلك تكميله لغيره، فقال:

(وأمر بالمعروف) أى وأمر غيرك بتهذيب نفسه قدر استطاعتك، تزكية لها، وسعياً إلى الفلاح، كما قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا».

(وانه عن المنكر) أى وانه الناس عن معاصى الله ومحارمه التى توبق من اكتسبها، وتلقى به فى عذاب السعير، فى جهنم وبئس المصير.

(واصبر على ما أصابك) من أذى الناس فى ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف أو نهيتهم عن المنكر.

وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة، وختمها بالصبر، لأنهما عماد الاستعانة إلى رضوان الله كما قال: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

ثم ذكر علة ذلك، فقال:

(إن ذلك من عزم الأمور) أى إن ذلك الذى أوصيك به من الأمور التى جعلها الله حتما على عباده لا محيص منها، لما لها من جزيل الفوائد، وعظيم المنافع فى الدنيا والآخرة، كما دلت على ذلك تجارب الحياة، وأرشدت إليه نصوص الدين.

وبعد أن أمره بأشياء حذره من أخرى، فقال:

(١) (ولا تصعّر خدك للناس) أى ولا تُعْرِض بوجهك عن تكلمه تكبراً واحتقاراً له، بل أقبل عليه بوجهك كله متهللا مستبشراً من غير كبر ولا عتوّ، ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

(٢) (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى ولا تمش فى الأرض مختالا متبختراً، لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون فى الأرض، ويظلمون الناس، بل امش

هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع ، وبذا تصل إلى كل خير .

روى يحيى بن جابر الطائى عن غضيف بن الحرث قال : « جلست إلى عبد الله ابن عمرو بن العاصى ، فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه ، فيقول : يا بن آدم ما غرك بى ؟ ألم تعلم أنى بيت الوحدة ؟ ألم تعلم أنى بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أنى بيت الحق ؟ يا بن آدم ما غرك بى ؟ لقد كنت تمشى حولى فدّادا (ذا خيلاء وكبر) » .

وفى الحديث : « من جر ثوبه خيلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة » .

ثم ذكر علة هذا النهى بقوله :

(إن الله لايحب كل مختال فخور) أى إن الله لايحب المختال المعجب بنفسه ، الفخور على غيره ، ونحو الآية ما مر من قوله : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

(٣) (واقصد فى مشيك) أى امش مشيا مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل امش هونا بلا تصنع ولامراءاة للخلق بإظهار التواضع أو التكبر .

روى عن عائشة أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتا ، فقالت : مالهذا ؟ فقيل : إنه من القرّاء (الفقهاء العالمين بكتاب الله) قالت : كان عمر سيّد القراء ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع .

ورأى عمر رجلا متماوتا ، فقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا ، أماتك الله . ورأى رجلا مطأطئا رأسه ، فقال له : « ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض » .

(واغضض من صوتك) أى انقص منه وأقصر ، ولاترفع صوتك حيث لايكون إلى ذلك حاجة ، لأنه أوقر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه .

ثم علل النهى وبيّنه بقوله :

(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) أى إن أبشع الأصوات وأقبحها برفعها فوق

الحاجة بلا داع هو صوت الحمير ، وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيها بصوت الحمار فى علوه ورفعه ، وهو البغيض إلى الله .

وفى ذلك ما لا يخفى من الذم . وتهجين رفع الصوت ، والترغيب عنه ، ومن جعل الرافع صوته كأنه حمار مبالغة فى التنفير من عمله ، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح فى وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة .

وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، قال شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النَّعَم
ويعدو على الأين عدو الظليم ويعلو الرجال بخلق عَمَم (١)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)؟

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبىّ - عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ماهم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة للعيان ، يشاهدونها فى كل آن ، فى السموات والأرض ، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم فى المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون

(١) الرواء بالضم : المنظر الحسن ، والنعم : الابل ، والأين : الاعياء ، والخلق العمم : التام .

فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدّعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون ، و إذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وما ذاك إلا من نزغات الشيطان ، والشيطان لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، و بئس القرار .

الإيضاح

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة) أى ألم تروا أيها الناس أن الله الذى سخر لكم ما فى السموات من شمس وقمر ، ونجوم وسحاب، تستضيئون بها ليلا ونهاراً ، وتهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ، وتنزل لكم الأمطار لسقى الناس والحيوان والمزارع المختلفة ، وما فى الأرض من الدوابّ والأشجار ، والمياه والبحار ، والسفن والمعادن التى فى باطنها ، إلى نحو ذلك من المنافع التى جعلها لغذائكم وأقواتكم ؛ فتتمتعون ببعض ذلك ، وتنتفعون بجميع ذلك ، وأتمّ عليكم نعمه محسوسة وغير محسوسة .

والخلاصة : إنه تعالى نبه خلقه إلى ما أنعم به عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ بأن سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، فأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح الشبه والعلل .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سيىء عملك » وقيل : الظاهرة الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ؛ وقيل : الظاهرة : ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة :

ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات .

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد مارى بعض الناس دون برهان من عقل ولا مستند من نقل ، فقال :

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير) أى وهناك فريق من الناس يجادل ويخاصم فى توحيد الله وصفاته كالنضر بن الحارث وأبىّ بن خلف اللذين كانا يجادلان النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك بلا علم من عقل ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور يؤيد صحة ما يدعون .

ثم بين أنه لامطمع فى إيمان مثل هؤلاء ، لأنهم قد بلغوا الغاية فى الغباوة ، واستسلموا للتقليد ، وتركوا الدليل وإن كان لائحا ظاهراً ، فقال :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) أى وإذا قيل لهؤلاء المجادلين الجاحدين لوحدانية الله : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع — لم يجدوا ردا لذلك إلا قولهم : إنا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من دين ، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح .

فوبخهم على تلك المقالة التى هى من حبائل الشيطان ووساوسه فقال :

(أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟) أى أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى دليل ؟ فربما كان اعتقادهم مبنيا على الهوى وترّهات الأباطيل ، سداه ولحمته ما زينه لهم الشيطان من وساوس لاتستند إلى حجة ولا برهان .

والخلاصة — أما كان لهم أن يفكروا ويتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال ؟

وفى هذا مالايخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم ، وأنهم بلغوا الدرك الأسفل فى هدم العقل وعدم الركون إلى الدليل مهما استبانت غايته واستقامت محجته.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) .

شرح المفردات

يسلم وجهه : أى يفوض أمره ، محسن : أى مطيع لله فى أمره ونهيه ، والمراد بالعروة الوثقى : أوثق العرى وأمتنها ، وهو مثل : وأصله أن من يرقى فى جبل شاهق أو يتدلى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع ، نضطرهم : أى نلزمهم ، وغليظ : أى ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المشرك المجادل فى الله بغير علم ـ أردف ذلك بذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله ، وبيان عاقبته ومآله ، ثم سلى رسوله عما يلقاه من المشركين من العناد والكفران ببيان أنه قد بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء ، فهو يجازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ فى جهنم و بئس المصير .

الإيضاح

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع مع الإحسان فى العمل بفعل الطاعات ، وترك المعاصى والمنكرات ، فقد تعلق بأوثق الأسباب التى توصل إلى رضوان ربه ومحبته وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح .

ثم بين العلة فى أنه يلقى الجزاء الأوفى فقال :

(وإلى الله عاقبة الأمور) أى إن المصير إلى الله لا إلى غيره ، فلا يكونن لأحد إذ ذاك أمر ولا نهى ، ولا عقاب ولا ثواب ، فيجازى المتوكل عليه أحسن الجزاء ، ويعاقب المسىء أنكل العذاب .

ثم سلى رسوله عما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال :

(ومن كفر فلا يحزنك كفره) أى لا تحزن على كفرهم بالله وبما جئت به ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن قدر الله نافذ فيهم .

ثم بين لرسوله أنه لا يهملهم على أعمالهم بل هو مجازيهم عليها فقال :

(إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) أى إن مصيرهم يوم القيامة إلينا فنخبرهم بما عملوا فى الدنيا من خبيث الأعمال حتى لا يكون هناك سبيل إلى الإنكار ثم نجازيهم على ذلك أشد الجزاء .

ثم بين أنه عادل فى الجزاء لسعة علمه وعظيم إحاطته بكل شىء فقال :

(إن الله عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى يجازيهم بكل ما عملوا ، إذ لا تخفى عليه خافية .

ثم بين أن ما يتمتعون به فى الدنيا فهو عرض قليل وظل زائل لا ينبغى لعاقل أن يقيم له وزنا بجانب العذاب الدائم فقال :

(نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) أى نمهلهم فى الدنيا زمنا قليلا يتمتعون فيه بزخارفها ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاق على نفوسهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى بخلق السموات بلا عمد و بإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم ـ أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك غير جاحدين له ، وهـذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق الحمد هو الذى يستحق العبادة ؛ فأمرهم عجب يعلمون للمقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها، فيعبدون من لايستحق عبادة ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا من الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله من قومك : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله.

وفى هذا إيماء إلى أنه قد بلغ من الوضوح مبلغا لايستطيعون معه الإنكار والجحود .

ولما استبان بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال آمرا رسوله .

(قل الحمد لله) على إلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به فى العبادة التى لايستحقها سوى الخالق المنعم على عباده .

ثم بين أنهم بلغوا الغاية فى الجهل فهم يعترفون بالشىء و يعملون نقيضه فقال :

(بل أكثرهم لايعلمون) أى بل أكثر المشركين لايعلمون من له الحمد وأين موضع الشكر ، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك .

ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال استدل على ذلك بقوله :

(لله ما فى السموات والأرض ، إن الله هو الغنى الحميد) أى له سبحانه كل ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وتصرفا وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره ، وهو الغنى عن عبادة جميع خلقه لأنهم ملكه وهم المحتاجون إليه ، المحمود على نعمه التى أنعمها عليهم .

وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أجرى الحكمة على لسان لقمان ، ثم قفى على ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة ، وأن له ما فى السموات وما فى الأرض — أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لاحصر لها ولا يعلمها إلا خالقها كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » .

ولما كانت تلك النعم التى لاحصر لها وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد — دفع هذا بقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » الآية ، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أتعنينا أم تعنى قومك ؟ قال : كُلًّا عنيت ، قالوا أنلست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شىء ، فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم ، قالوا كيف تزعم هذا وأنت

تقول : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ، فنزلت الآية : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الخ .

الإيضاح

(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) أى لو أن أفنان الأشجار وأغصانها بريت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمدته سبعة أبحر والخلائق جميعا يكتبون بها كلمات الله الدالة على عظمته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولم تنفد كلمات الله .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » وإنما ذكرت السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة ، لا لقصد هذا العدد بعينه ، فقد تقدم أن قلنا آنفاً إن العرب تذكر السبعة ، والسبعين ، والسبعمائة ، وتريد بذلك الكثرة كما جاء فى الحديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » وفى الآية : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » .

وقصارى ذلك : إنه أخبر أن عظمته وكبرياءه وجلاله وأسماءه الحسنى لا يحيط بها أحد ، ولا يصل البشر إلى معرفة كنهها وعدها كما ورد فى الحديث : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

(إن الله عزيز حكيم) أى إن الله قد عزّ كل شىء وقهره ، فلا مانع لما أراد ولا معقب لحكمه ، وهو الحكيم فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شئونه .

ثم أبان أن هذا الخلق الذى لا حصر له محيط به علما ، ولا يعجزه شىء فيه متى أراد ، فقال :

(ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى ما خلق جميع الناس ولا بعثهم

يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كخلق نفس واحدة ، فالكل هين عليه كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ، وقال : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » ، وقال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

(إن الله سميع بصير) أى إن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

شرح المفردات

يولج : أى يدخل ، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار ، والعكس بالعكس ، فيتفاوت بذلك حالة أحدهما زيادة ونقصانا ، تجرى : أى تسير سيرا سريعا ، بنعمة الله : أى بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما ، غشيهم : أى غطاهم ، والظلل : واحدها ظلة ، وهى كما قال الراغب : السحابة تظل ، مقتصد : أى سالك للقصد أى للطريق المستقيم ، وهو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره ، وما يجحد : أى ما ينكر ، وختار : من الختر ، وهو أشد الغدر ، قال عمرو بن معد يكرب :

فإنك لو رأيت أبا عُمير ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

بالأبلق الفرد من تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ حصنٌ حصينٌ وجارٌ غير ختَّار

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض ـ ذكر هنا بعض ما فيهما بقوله : يولج الليل فى النهار الخ ، و بعض ما فى السموات بقوله : وسخر الشمس والقمر ، و بعض ما فى الأرض بقوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ، ثم ذكر أن الكل معترفون بتلك الآيات ، إلا أن البصير يدركها على الفور ، ومن فى بصيرته ضعف لايدركها إلا إذا وقع فى شدة ، وأحدق به الخطر ، فهو إذ ذاك يعترف أن كل شىء بإرادة الله .

الإيضاح

(ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) أى ألم تشاهد أيها الناظر بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، و يزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : إنه يأخذ من الليل فى النهار ، فيقصر ذاك و يطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدئ النهار فى النقصان ، و يطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

(وسخر الشمس والقمر) لمصالح خلقه ومنافعهم .

(كل يجرى إلى أجل مسمى) أى كل منهما يجرى بأمره ، إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كوّرت الشمس والقمر .

(وأن الله بما تعملون خبير) أى وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لاتخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال :

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى إنما يظهر آياته لكم لتستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو الباطل الذى يضمحل و يفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه .

(وأن الله هو العلى الكبير) أى وأنه تعالى المرتفع على كل شىء ، والمتسلط على كل شىء ، فكل شىء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته أشار إلى آية أرضية ، فقال :

(ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته) أى ألم تشاهد أيها الرسول السفنَ وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الإبرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال :

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . قال الشعبى : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء و يلجئون إليه حين الضراء ، فقال :

(وإذا غشيهم موج كالظل دعوا الله مخلصين له الدين) أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان ـ الأمواجُ العالية التى كالجبال ، وأحدق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن ـ فزعوا بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئا ، ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

(فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موفّ بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

شرح المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لايجزى : أى لايغنى ، والغرور : ماغرّ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة ، ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة ، والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال متنوعة ـ أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لاتنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة ، ولايغرنكم الشيطان

فيزينن لكم بوساوسه المعاصى والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما فى الكائنات ، وهى الخمس التى اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرّب ، ولا نبى مرسل .

الإيضاح

(يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) أى يأيها المشركون من قريش وغيرهم اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه فى يوم لايغنى والد عن ولده ، ولامولود هو مغنٍ عن والده شيئا ، لأن الأمور كلها بيد من لايغالب ، ومن لاتنفع عنده الشفاعة والوسائل التى تنفع فى الدنيا ، بل لاتجدى عنده إلا وسيلة واحدة ، هى العمل الصالح الذى قدمه المرء فى حياته الأولى .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(إن وعد الله حق) أى واعلموا أن مجىء هذا اليوم حق ، لأنه قد وعد الله به ولا خلف لوعده .

ثم حذرهم من شيئين ، فقال :

(١) (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى فلا تخدعنكم زينة هذه الحياة ولذاتها ، فتميلوا إليها وتدَعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله فى ذلك اليوم .

(٢) (ولايغرنكم بالله الغرور) أى ولايغرنكم الشيطان ، فيحملنكم على المعاصى بتزيينها لكم ، ثم إرجاء التوبة إلى ما بعد ذلك ، ثم هو ينسينكم ذلك اليوم ، فلا تتخذُنّ له زادا ، ولا تعدُنّه مُعادا .

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء لايعلمها إلاهو ، فقال :

(١) (إن الله عنده علم الساعة) فلا يعلمها أحد سواه ؛ لاملَك مقرب ، ولانبى مرسل ، كما قال : « لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ » .

(٢) (وينزل الغيث) فى وقته المقدر له ، ومكانه المعين فى علمه تعالى ، والفلكيون وإن علموا الخسوف والكسوف ، ونزول الأمطار بالأدلة الحسابية ،

فليس ذلك غيبا ، بل بأمارات وأدلة تدخل فى مقدور الإنسان ، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحيانا فى مرتبة الظن ، لا فى مرتبة اليقين .

(٣) (ويعلم ما فى الأرحام) أذكر هو أم أنثى ، أتامّ الخلق أم ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر .

(٥) (وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت) أى لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى برّ ، أم فى سهل ، أم فى جبل .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة «أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تُخْصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمتُ ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمتُ بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ؟ فنزلت الآية : إن الله عنده علم الساعة الخ » .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إن الله عليم خبير » . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

مجمل ما حوته السورة الكريمة من الموضوعات

(١) القرآن هداية ورحمة للمؤمنين .

(٢) قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم ، واتخذ آيات الله هزوا .

(٣) وصف العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله .

(٤) قصص لقمان وإيتاؤه الحكمة ، وشكره لربه على ذلك ، ثم نصائحه لابنه .

(٥) الأمر بطاعة الوالدين إلا فيما لايرضى الخالق .

(٦) النعى على المشركين فى ركونهم إلى التقليد إذا دعوا إلى النظر فى الكون وعبادة الخالق له .

(٧) لانجاة للإنسان إلا بالإخبات إلى الله وعمل الصالحات .

(٨) تسلية الرسول عن عدم إيمان المشركين .

(٩) تعجيب رسوله من المشركين بأنهم يقرون بأن الله هو الخالق لكل شىء ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثلهم .

(١٠) نعم الله ومخلوقاته لاحصر لها .

(١١) الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه للسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع لها .

(١٢) تحميق المشركين بأنهم فى الشدائد يدعون الله وحده ، وفى الرخاء يشركون معه سواه .

(١٣) الأمر بالخوف من عقاب الله يوم لايجزى والد عن ولده .

(١٤) مفاتيح الغيب الخمسة التى استأثر الله بعلمها .

(١٥) إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها وباطنها .